العراب الإيطالي في الوطن السوري

بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

تم نشر المقال التالي في 24 شباط 2026 في جريدة زمان الوصل الالكترونية : https://www.facebook.com/share/p/1CNRdC5oRf/

كثير منا من شاهد الفيلم الأكثر شهرة في تاريخ السينما (العراب) أو بالانكليزية (Godfather) للمبدعين الكاتب (ماريو بوزو) والمخرج (فرانسيس فورد كوبولا)، والذي يروي عبر أجزائه الثلاثة عن تطور عائلة (كورليوني) المافيوية الإيطالية في أمريكا منذ نشأتها حتى النهاية.

إن المتمعن جيداً سيجد أن هذا الفيلم المشوق بتفاصيله، والذي سيبقى في الذاكرة دون الملل من إعادة مشاهدته، هو لايتحدث عن تحالفات وصراعات مافيوية فقط، بل هو يتحدث عن صورة أوسع لتطور الدول المستبدة (فالاستبداد مافيوي بطبيعته ولايستطيع إلا أن يكون كذلك)، وهذا ماسأبينه في هذا المقال من خلال إسقاطاته على الوطن السوري.

يتحدث الفيلم عن نشأة الأب المؤسس للعائلة (فيتو كورليوني) والذي كان شاهد عيان على قتل أبيه وأمه وأخيه من قبل زعيم (صقلي) نافذ، الأمر الذي اضطره للهرب وهو صغير إلى أمريكا، حيث أسس أسرة وعاش بنزاهة وأخلاق، ولكن الظروف والصدفة جعلته ينحرف نحو تشكيل عصبة مافيوية، إلا أن الفيلم يقدمه لنا محباً وحنوناً على أسرته، وناصراً لمجتمعه المحلي لأنه ابن الماضي المر الممزوج بالآلام والحرمان، ولم يكن فيه صفة الإجرام، وكان مهاباً ومحترماً، يمشي بدون مرافقة، وحين تم عرض الشراكة عليه في تجارة (المخدرات) الرابحة جداً والناشئة حديثاً رفض ذلك، لأن المخدرات تؤذي مجتمعه وتودي بالجيل إلى التهلكة، فللمجتمع لدى (كورليوني) الأب أولية، الأمر الذي جعله يتعرض للغدر ومحاولة الاغتيال القاسية. إن شخصية (فيتو) ماهي إلا تمثيل لآباء

الاستقلال في الوطن السوري، وكيف استطاعوا أن ينشئوا هذا الوطن ويستقلوا به بعد معاناة قاسية كما فعل الأب (كورليوني)، وقد تمتعوا بالاحترام في مجتمعهم وليس الخوف منهم، وللمزيد عن دورهم يمكن العودة إلى مقالي في زمان الوصل بعنوان (الايديولوجيات الأممية وقتل الوطنية).

إن الحدث الأبرز في الفيلم يبدأ مع رفض الأب عرض (التركي سولوزو) للعمل معاً في مجال المخدرات، فيقوم الأخير بمحاولة الاغتيال. يمثل (التركي سولوزو) هنا بدء التدخل الأجنبي في الوطن السوري، ومع رفض آباء الاستقلال لذلك بدأ مسلسل الانقلابات.

مع إصابة الأب (فيتو) الشديدة سيبدأ ابنه (مايكل كورليوني) بالظهور للحلول محله في إدارة شؤون العائلة. يستعرض الفيلم لنا ماضي (مايكل) من أنه كان وطنياً مخلصاً لوطنه أمريكا، وقد شارك في الحرب العالمية الثانية ضد اليابانيين بعكس مشيئة أسرته، وهو المتمرد عليها، وغير راض عن أعمال أبيه المافيوية ويتبرأ منها. إن مايكل هنا لايمثل إلا بداية الثوريين الايديولوجيين الأممين الذين تحدثت عنهم في مقالي السابق (الايديولوجيات الأممية وقتل الوطنية)، والذين بمجرد استلامهم السلطة تحولوا إلى الاستبداد المطلق. إن (مايكل) في فيلم (العراب) يمثل المستبد المطلق بكل شيء بعكس أبيه. فهو من يقوم بالتأسيس لمبدأ (اقتصاد العائلة) وذلك بحصر كل شيء بيد عائلة (كورولیوني)، فهو يتخلص من جميع شركاء والده ويستولي على حصصهم، فمن لم يقبل معه بالمغادرة لقاء مبلغ، كان علاجه القتل، فقام بالتأسيس للجريمة بعكس والده، فلا ينتهي أي جزء من أجزاء فيلم (العراب) إلا بتصفية جميع خصومه، وكذلك يبعد عنه المعارضة الداخلية والتي تمثلها زوجته (كاي) المعترضة دائماً عليه والمطالبة له بالتخلي عن أعماله المشبوهة، وهي المعارضة الأخلاقية الرافضة لإغراءات زوجها السلطوية وجاهه وماله، وكان المستبد (مايكل) دائماً مايجد نفسه مضطراً للكذب عليها والادعاء أنه إنسان أخلاقي وفاضل، إلى أن كاشفته صراحة أنها تعلم حقيقته وترفضها، وأنها قامت

بإجهاض طفله حتى لاتنجب منه لأنها لاترى فيه إلا وحشاً (يستحيل معه الإصلاح). وكذلك يعمل على إبعاد محاميه ومستشاره القانوني الخبير والمتزن (توم هيغن) في أنه لم يعد مناسباً للمرحلة المقبلة، مرحلة الاستبداد، ولم يتردد هذا المستبد عن قتل أخيه (فريدو) في الجزء الثاني لخطأ لم يغفره له في محاولة الأخ في الحصول على شيء زهيد من الثروة، فالثروة كاملة لاتبقى إلا بيد المستبد (مايكل)، وكان القتل مؤثراً حيث أن القتل تم و (فريدو) يتلو الصلاة. لقد أراد الكاتب (ماريو بوزو) أن يقول أن المستبد يذهب إلى أبعد مما نتصور. أليس ذلك ماحدث في الوطن السوري وغيره من الأوطان التي ابتليت بالاستبداد كيف أنها تحولت إلى مزرعة للعائلة المستبدة، وتم القضاء على المعارضة الأخلاقية وإبعاد ذوي الخبرة والمشورة الراجحة.

هنالك جزء هام من الفيلم يتحدث عن محاولة الحكومة الأمريكية مقاضاة المستبد (مايكل) على جرائمه، وقدرة هذا المستبد على تزييف الحقائق لتتم تبرئته في النهاية مع المطالبة بالاعتذار منه، بل إن الفيلم يذهب إلى أبعد من ذلك كيف أن شبكة مصالحه الواسعة تجعل أحد القضاة يتحدث عن طهره ووطنيته. إن هذه المحاكمة ليست إلا انعكاساً عن القوانين الدولية الحالية التي تعجز عن إسقاط المستبد بسبب مصالح القطبيات الدولية (عن إدارة القطبيات الدولية للعالم وللدول الوظيفية، يمكن قراءة مقالي على موقع سيريانيوز بعنوان: القطبية الدولية وسوريا الوظيفية، ومقال آخر على موقع زمان الوصل بعنوان: سوريا الوظيفية والحدث المادوري). أليس هذا ماحدث في الأمس القريب، كاغتيال رفيق الحريري على سبيل المثال وكيف تمت تبرئة النظام السوري وحزب الله من هذا الاغتيال بعد عمل قضائي طويل استمر 15 سنة. أليس هذا ماحدث مع النظام السوري من خلال قوانين قيصر والكيماوي والكبتاغون، وكيف لم تستطع هذه القوانين الدولية أن تسقط هذا النظام إلا عندما شاءت القطبية الدولية الأمريكية ذلك. إن استخدام القوانين الدولية ماهو إلا ابتزاز من الدول القطبية للأنظمة المستبدة، ولكن آليات إسقاطها مختلفة تماماً ومرتبطة بتغير المصالح القطبية.

لقد كان الجزء الثالث أكثر جرأة في إظهار تحالف رجل المافيا المستبد (مايكل) مع الكنيسة. لقد كان الطرح جريئاً للغاية من حيث القول أن (بابا الفاتيكان)، وهو رأس الهرم الكنسي العالمي والذي يدين له أكثر من 20٪ من سكان العالم (أكثر من مليار ونصف)، يتم اختياره من قبل المستبد المافيوي بالتعاون مع رجال الكنيسة الفاسدين، الذي خصصوا منابر كنائسهم للتحدث عن مدى طهارة المستبد (مايكل). لقد تم اغتيال (بابا الفاتيكان) الجديد والذي جاء لتنفيذ أجندة أخلاقية لتطهير كنيسته الفاسدة. إن الفيلم يقول لنا أن المستبد يسعى دائماً لبناء كنيسته الخاصة، كما عمل مستبدو الوطن السوري على بناء (الجامع) الخاص بهم.

أما نهاية رواية عائلة (كورليوني) فتكون بمقتل ابنة (مايكل) نفسه في نهاية الجزء الثالث، ومن قبل (مافيويين مستبدين منافسين)، هذه الابنة التي أبعدها المستبد (مايكل) عمن تحبه، فاستبداد العائلة وجلوسها على عرش السلطة المافيوية أهم من الحب.

بقي القول في نهاية المقال أن الابنة هنا لاتمثل إلا سوريا، والتي أبعدها المستبدون (أبناء مافيا العائلة) عمن تحب، فكثرت مهاجر واغتراب عشاقها في الخارج والداخل. هذه الابنة سوريا التي قد تنتهي بنفس النهاية المأساوية للفيلم بالموت مالم يتم الابتعاد عن الاستبداد، وتجفيف منابعه وجذوره، وفق آليات وطنية ديمقراطية ذكرت بعضها في مقال سابق على موقع زمان الوصل بعنوان (الاستبداد والعصبيات: قصة سورية).

لقد آن للوطن السوري وبعد الدمار والدم الذي حل به أن يعلن أن زمن العرابين قد انتهى، أن يعلن أن زمن مافيا العائلات (الكورليونية) وماتجلبه من الخراب قد انتهى، و أن يعلن أن دولة المواطنة لا العصبيات، دولة القانون بآلياتها الديمقراطية التي تبني الإنسان المبدع لا العصبوي المتخلف، هي العراب الوحيد الذي يؤمن به هذا الوطن.